كلمة معالي الأستاذ ميشال اده

في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الشاعر جودت حيدر

قصر الأونيسكو – بيروت ٤ كانون الأول ٢٠٠٧

في مثل هذا اليوم من العام الفائت، وبعد قرن كامل زائداً سنة، غادرنا جودت حيدر منتقلاً الى جوار ربّه في جنان الخلد. لكنّ حضوره ماثل باق، عصيّ على الغياب. فها هو يشعّ علينا شمساً بعلبكية في دغشة هذه الأمسية، وسط هذا التخبّط اللبناني العشوائي العام في عتمة تأزّم، هو أشبه بليلٍ دامسٍ، مُنذرٍ بكريهِ المخاطر.

لقاءاتي به كانت لماماً، لسوء حظّي. لكن الواحد منها كان بألف. فأنت تلتقي بعمود، طود شامخ حيّ، نابضٍ بعراقة لبنان ورسوخه، متيّم بانفتاحه وبتميّزه المنفطر على التنوّع الديني وتعدّده السياسي والثقافي. وهذا ما كان يرى إليه الراحل الكبير موهبة لبنان الأولى، بل دعوته. قل لبنان الأكثر من دولة. «لبنان الرسالة» – على حدّ توصيف الراحل الكبير قداسة الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني.

لبنان، ببنيته هذه، لم يبدع فقط روّاداً نهضويين وروّاداً مجددين، في الحداثة والشعر والأدب والفنون والثقافة والعلم والعمل الأكاديمي. إنّه مبدع صيغة مجتمعية في العيش المشترك، رائدة كذلك، تقوم على التنوّع والحقّ في الاختلاف، واحترام الآخر وقبوله، على الحرية والديموقراطية بكلمة.

وعندما أسرّ لي جودت حيدر ذات لقاء، باعتزامه المبادرة الى ترميم تمثال شاعر القطرين خليل مطران، إبن بعلبكّ الكاثوليكي وعنوان عراقتها وإبداعها وريادتها في تاريخ المنطقة وتاريخ العالم، وإعادته الى مدخل بعلبك – وهو ما تحقّق في مهرجان لبناني عربي حاشد جامع راقٍ في صيف العام ١٩٩٥،

فإنّ الشاعر جودت حيدر لم يكن يرى الى هذه المبادرة الرائعة تذكرة وفاء شاعر لشاعر زميل وحسب – وهذه أصلاً بادرة أضحت نادرة حتى على هذا المستوى. ولا رأى إليها مجرّد عربون وفاء مواطن بعلبكيّ لتربٍ له نشأ على شمس بعلبك مدينته وشمسه هو الأخر – وهذه بحدّ ذاتها أمثولة كم بتنا بحاجة اليوم بخاصة للاقتداء بها.

أحسب أنّ تعلّقه حتى الشغف بالتنوّع الذي انفطر عليه وطنه اللبناني هو ما حدا به كذلك، وأكاد أقول حدا به أساساً، أن يقدّم قراءة سياسية كان يجيدها شاعرنا في ضوء الخطوب التي تراكمت على كاهل هذا الوطن أو فجّرت ألغاماً على دروب عيشه المشترك ومسيرة تطوّره.

لقد أدرك جودت حيدر باكراً جداً أنّ هواء الإبداع إنمّا هو التنوّع وليس التماثل. وأنّ ما يصنع الإبداع أو يطلقه هو ذاته الذي يطلق الحرية : أ لا إنّه التنوّع. فكان ضربه المثل على ذلك البدء بمدينته وأهليه.

إنّ لي، في معالم بارزة جداً من مسيرته الحياتية والإبداعية وسيرة إنجازاته الأخرى، ما يعزّز اقتناعي بما ذهبت إليه.

أ وَ ليس لافتاً للنظر والإعجاب تمسّكه بأن يكتب تجربته الشعرية باللغة الإنكليزية ؟ إنّ لفي ذلك تعبيراً فريداً عن أهمية الانفتاح، عن غناه وعن حضوره جوهرياً في إبداع هذا الشاعر، وفي نظرة ومواقف هذا الرجل الكبير.

فالثقافة ثقافات. كل ثقافة هي احتكاك، قل حوار، ثقافات. أمّا الثقافة المنغلقون أبناؤها عفواً أو عمداً عن الثقافات الأخرى فهي حكماً الى انحطاط وزوال، ما دامت لا تقتات إلاّ من عقمها بفعل تقوقعها وانغلاقها على الذات.

في السياق ذاته، ثمّة ظاهرة أخرى أجدني متوقّفاً عندها بغامر السعادة، بصفتي لبنانياً. وهي أنّه في عداد الأوسمة الكثيرة الرفيعة التي منحت لراحلنا الكبير، ثمّة الوسام المرموق، «مقعد القدس البابوي» الذي منحه له قداسة الحبر الأعظم الراحل يوحنا الثالث والعشرون، فضلاً عن الأوسمة المرموقة الأخرى من البطريركية الأرثوذكسية وبطريركية الأقباط الأرثوذكس.

أ وَ ليس هذا التقدير المسيحي الرفيع لجودت حيدر تحية بليغة الدلالات لروحيته في الانفتاح واحترام التنوّع ؟ في نبذ الأحادية والتعصّب بل التعنصر الديني والعرقي؟

ثمّة في مسيرة هذا اللبناني الكبير نضج لافت – ومبكر مبكر – الى إيلاء شؤون التربية والتعليم الأهمية القصوى. فإذا كانت العناية بالأرض، بتربتها وتربيتها، أي بتنشئتها، هي ما حملت شاعرنا الى أن يختار دراسة الزراعة في الولايات المتحدة الأميركية، فلا ريب في أنّ مسألة العناية بالنشء اللبناني وتعليمه هي ما قادته الى أن يلتفت في دراسته الجامعية بالولايات المتحدة كذلك الى دراسة التربية والتعليم. وفعلاً، فإنّه انصرف، منذ مطلع شبابه وفي عزّ حيويته الطويلة العمر، الى العمل في حقل التربية والتعليم، في لبنان وفي فلسطين أيضاً. إنّه الغرس ذاته في التربة، كنا الغرس بالتربية.

غير أنّ جودت حيدر، وفي كل حقول العمل التي نشط ولمع فيها، قد حافظ على ميزة ناصعة : أن يكون تأسيسياً. وكل تأسيس إبداع.

غريب أمر هذا المبدع الذي لم يَسْعَ، على ما أحسب، الى تمكين مواطنيه في لبنان ودنيا العرب، من الإطلاع على تجربته الشعرية بلغتهم العربية الأمّ. عسى أن يتوفّق الهيئتان الثقافيتان، «ديوان أهل القلم» و«ندوة الإبداع»، بالتعاون مع بلدية بعلبك، الى متابعة اهتمامها المشكور بتراث هذا الرجل الكبير، والعمل على نقله الى العربية، مثلما بادرت مجتمعةً الى هذا التكريم في الذكرى السنوية الأولى لغيابه.

عندما استقال من الأعمال والشركات، والسياسة المباشرة التي جرّب خوضها مرّة يتيمة من خلال الانتخابات النيابية عام ١٩٦٠ وفاته حظ النجاح فيها، يقال أنّه مال الى التفرّغ للشعر. هنا أيضاً تشدّك الى دواوينه بالانكليزية عناوينها : أوّلها عام ١٩٨٠ كان بعنوان «أصوات» (voices). ومن الأصوات، انتقل في العام ١٩٨٦ الى «أصداء» (Echoes)، عنوان ديوانه الثاني. الى أن تحوّل شغفه في ١٩٩٨ الى مكنونات «الظلال» (Shadows) عنوان ديوانه الثالث.

أمّا في العام ٢٠٠٦، فقد ودّعنا قبيل مغادرته لبنان والعالم بعد معايشة للعواصف والأنواء والتحوّلات المتلاطمة المتناقضة التي عاشها أبناء وطنه وجلدته،

ودّعنا بديوانه الأخير : 101selected poems «مئة قصيدة وقصيدة مختارة».

يا لهذا الشاعر المعجب : كان مبدعاً للشعر طيلة عقدين. لكنّه لم ينسَ أن يذكّرنا قبيل غيابه بأنّه يودّعنا ناقداً غربالاً لشعره.

كم أنّه علينا، مبدعين ومثقفين وسياسيين بخاصة، أن نظلّ بحاجة الى هذا النبل في نقد الذات. وفي نقد الآخر كذلك. والأهم قبول النقد باعتباره مشاركة في أوركسترا التأليف، لا عداوة بغيضة.

رحم الله العلاّمة الشيخ عبدالله العلايلي الذي كتب :

«من ينقدْ عليك كمن يؤلّف معك».

وإليك أيّها الفقيد الغالي جودت حيدر أطيب السلام والرحمة. أنت شمس لا يخبو نورها. وإنّ لحضورك في حياتنا مذاقاً بالغ الخصوصية والفرادة والكِبَر.

تحية التقدير الكبير الى الهيئات المبادرة الى هذا الاحتفال، ولرئيسة لجنته التنظيمية الدكتورة سلوى الخليل الأمين.

وشكراً لكم.